

II- زمن الحلم والحنين:

الجدول 01:

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
الى صديق غريب	صديقي	2	485/1
			486/1
غريب	أمس	3	485/2
			486/2
الآن		2	485/1
			486/1

أخذت الشاعرة الزمن والإنسان -تصريحاً- مركزاً لانفعالها الشعري، على عكس الوضع الذي ساد زمن الثورة والرفض؛ قد يكون الباعث توجيه خطابها إلى صديق لا تعرفه، غريب عنها، ولعل كل مخاطب هو ذلك الصديق، ليتناسب هذا الاختيار مع (الأمس) لفظاً دالاً على الزمن الماضي، معمقاً الدلالة، فبدأ التحسر في حاضرها، ولم يكن كذلك في ماضيها:

- (صديقي الغريب

لو أن طريقي إليك كأمس

لو أني يا صديقي كأمس)⁽¹⁾

يبدو أن الشاعرة تجاوزت الحال والمكان والحدث إما لتحويلها من وضع لآخر، وإما لاستمرارها على نسق واحد؛ فلم يبق ثابتاً إلا الإنسان والزمن، وصار الأمر معروفاً بالضرورة، وإعادة ذكره عود إلى حال تمّ تعيينها.

لقد تحوّل الوضع فتحوّل الأنا، والفواصل بين الحالين الزمن (أمس) والامتناع (لو) والتشبيه (ك)، وهذا وجه الدلالة الأول. والثاني الاستمرار على وتيرة واحدة تولّد الانغماس والتعمق في الحال حتى تُظهر حالاً جديدة، وفيها أيضاً يتحول الأنا إلى أنا جديد، يثبت الصداقة والقرب بالأمس والبعد اليوم، فبدأ الانفعال مناجاةً وحسرةً وانتفاءً لكائن لم يعد موجوداً. إن هذه الحال من اليأس غير المعلن صراحةً يجعل المناجاة تتجه إلى من عظمت مكانته وارتفع شأنه، والشكوى عنده تضرع وتقرّب... (الجدول 02):

¹ - الديوان، ص 485.

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
إلى السيد المسيح في عيده	سيد	6	4 9 9 /2 5 0 0 /1 5 0 1 /2
مجد	مجد	2	4 9 9 /1 5 0 1 /1
القدس	القدس	6	4 9 9 /1 5 0 0 /2 5 0 1 /3
عيدكم	عيدكم	3	4 9 9 /2 5 0 0 /1
العام/عام	العام/عام	3	4 9 9 /2 5 0 0 /1
الأجراس	الأجراس	2	4 9 9 /1 5 0 0 /1
سواد	سواد	2	5 0 0 /2
المحنة	المحنة	2	5 0 0 /2
العالم	العالم	2	5 0 0 /1 5 0 1 /1
الأحزان	الأحزان	2	5 0 0 /1 5 0 1 /1

جاء العام الجديد وتحققت آماني الناس، وغاب في القدس ما دلّ على فرحة العيد، فعمّ السواد والحزن في زمن المحنة.. في هذا الوضع مقارنة بين العالم المحتفل بالعام الجديد والناعم بالغبطة والرضى، وبين القدس مدينةً للحزن والأسى..

يحن الإنسان إلى زمن مضى ويحلم بعودته استقبالا، لتحوّل الحياة من جديد رحبةً واسعةً تسع الكل وتستهووي الجميع.. لكن الحاصل أن تتجدّد الآلام وتعمّق الجراح في عالم اختلت توازناته، وانعدم شعوره، وقَلَّت فيه نُصرة الإنسان، فلا ملجأ لديه إلا التضرع والمناجاة.

يترتب عن هذا التماثل بين المسيح وبين القدس في الوطن المحتل امتداد دلالي هيمن على النص؛ فالمسيح صورة للعناء والمحنة، أخذتها عنه القدس، فتوحدا توحدنا وجداننا:

-(يا سيد يا مجد الأكوان ----- [التضرع]

في عيدك تصلب هذا العام

أفراح القدس ----- [الزمن/المعاناة]

فقباب الأجراس حداد

القدس على درب الآلام

يا سيد يا مجد القدس

من بئر الأحزان، من الهوة، _من_

قاع الليل-----[الاحتلال]

يرتفع إليك أنين القدس⁽¹⁾-----[أنسنة المكان]

صارت القدس -وهي المكان المقدس- إنسانا يتأوه ويعن، وبئر الأحزان فيه القلب والوطن والذات، فتساوت الألفاظ للدلالة على الحنين إلى زمن مفقود، حتى بدا كل طرف منها في صورة الآخر، فجاء التصوير على الحقيقة إلا في إبدال الإنسان بالمكان.

تتحول الشاعرة من مناجاة الصديق الغريب إلى مناجاة المسيح في محاولة التوجه والانغماس الكلي في العقيدة الدينية، وهو الواضح من الأمر المنصرف إلى الدعاء المقترن بالنداء تعبيراً عن السخط واليأس والغضب حيناً، وعن التفويض والتسليم حيناً آخر:

- (يا سيد يا مجد القدس

رحماك أجز يا سيد عنها^(٢)

هذي الكأس)⁽²⁾

يقع التعويض حين يجزي المسيح عن القدس كأس الإسار والقيود والاحتلال، وهي رحمة تعادل رحمة المسيح في حمله خطايا البشر، فتنتفي أعباؤهم وتستقر حياتهم، حينها تغدو القدس كما كانت. وتتوجه بالمناجاة إلى مخاطب غير معيّن، ترجو عنده ما رجته عند غيره، كاشفةً عن حال تتكرر وتتأزم دوماً.. (الجدول 03):

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
إلى الوجه الذي ضاع في النتيه	قلبي	8	5 3 3 /1
			5 3 4 /3
			5 3 5 /2
			5 3 8 /1
			5 4 0 /1
الليل	الليل	8	5 3 4 /3
			5 3 5 /2
مستنقر الشعور			
الاحتلال / الزمن			

¹ - الديوان، ص 499-501. وهو توازن ناقص

² - الديوان، ص 499-501.

الفصل الخامس: التأويل الحر... التكرار

	5 3 8 /2 5 4 1 /1			
الضياء/ ما ينير الظلمة	5 3 4 /2 5 3 7 /1 5 4 0 /2	5	القمر	
مكان	5 3 5 /1 5 3 7 /2 5 3 8 /2	5	الأرض	
مكان	5 3 8 /2 5 3 9 /1	3	القدس	
الشعور	5 3 3 /1 5 3 4 /2 5 3 5 /1 5 3 6 /2 5 3 7 /2 5 3 8 /1 5 3 9 /3	12	الحب	
زمن	5 3 6 /3 5 3 4 /1	4	يوم	
مكان	5 3 8 /2	2	المدينة	
نبات	5 3 3 /1 5 3 7 /2	3	الزهر	
حال/شعور	5 4 0 /4 5 4 1 /2	6	حياتي	
كائن	5 3 4 /2 5 3 0 /2	4	الوجه	
شعور/مذاق	5 3 4 /2 5 4 0 /1	3	الحلو	
حال	5 3 4 /2	2	المشوه	
حال	5 3 8 /1 5 3 9 /1	2	الأسى	
إنسان	5 4 0 /2	2	شعبي	
مكان	5 3 7 /1 5 3 9 /3 5 4 0 /1 5 4 1 /1	6	بلادي	
مكان	5 3 5 /1 5 3 6 /1	2	وطني	

إن الالفت للنظر هو تردد (القلب) بوصفه مستقرا للشعور في زمن (الاحتلال)، أو (ليلا) حين تتحرك آلام الواقع المعيش، لا يرافقه إلا (القمر) شاهدا عليه وعلى الحال السائدة المفتقدة

ل(لح) قيمةً تنظم علاقات البشر. وعليه، لا يستبعد أن تكون الحياة (أسى) ووضعا (مشوها) لما يجب أن يكون عليه. وأما المكان والزمان والإنسان، فمما سبق الحديث عنه بما يجعله علة الانفعال كله. (الجدول 04):

النص	التركيب	التردد	الصفحة
	[يا رفيقي] نحر الليل القمر	2	5 3 4 /2
	أه يا حبي	3	5 3 6 /2 5 3 9 /1
	أترى ترجع تعطي	2	5 3 7 /2
	وحياتي [مع شعبي] تستمر	4	5 4 0 /2 5 4 1 /2

لقد كان الليل دوما هو الاحتلال، فيكون القمر الضياء الغائب، وبغيابه غابت الحياة المرغوب فيها، وحلت كل أنواع الوجود المرفوض، فيأتي التأوه في موضعه، والتساؤل مشروعا، إذ في العطاء المستمر استمرار الحياة، وهي هنا مخصصة مع الشعب في رحلة استرجاع الضوء العائد على الحرية والاستقلال. وفي هذا حلم وحنين بمستقبل يضمن حياةً فيها نبض يسري في المكان والإنسان. إن بنية التوازي الناتجة عن تكرار الألفاظ والتراكيب أسهمت في تعميق البعد المعنوي للنص، خاصة وقد أخذت طابعا دراميا، يصور قصة عاشقين افترقا في وطن مجروح، فلم يبق لهما سوى الذكريات والحنين إلى الماضي، أو هو الوطن عينه، لتبرز براعة الشاعر في استخدام مشاهد موحية بدلالات الهزيمة والانكسار:

- (آه، لا تملأ بطاقتك لي

بشذى الذكريات وباقات الهوى

بين قلبي ورفاه الحب صحراء

(...) لا تقل لي اذكيرني

(...) عتمت ذاكرة الحب وغامت

صور الأحلام، والحب شبح

(...) كيف دارت هذه الدنيا ؟

كيف كنا ؟

(٣٠٠) وطني كانت تغطيه مياه الليل، كان

قلبه الصامت في ليل الهزيمة

(٣٠٠) علي باب بلادي

وأناذي: يا حبيبي

من يفك اللغز من يكشف

سر الكلمات⁽¹⁾

في هذا المشهد روح تصور حال الهزيمة والشجن، ويغيب عندها السر الذي يكشف لغز الكلمات، لكنها عندما تنتقل من الواقع المفروض إلى الواقع المأمول تعين مشهداً يناقض السابق، لتجلى فيه روح الإصرار على النصر والأمل فيه، والجامع بين المشهدين (وحياتي تستمر)، لأن استمرار الحياة يضمن التحول كما تتحول كل الأشياء، وهو على أقل تقدير حلم يُرجى له التحقق، وحينئذ إلى سابق عهد، المكان فيه مبعث لحياة الرضى:

- (وحياتي تستمر) ----- [الاستمرار]

وتلف الريح أيامي على الدرب العصي

مع شعبي، ويلاقينا على حافاته

صخر وأشواك وصلب ----- [الحنّة]

وحياتي مع شعبي تستمر

ووراء النهر غابات الرماح السمر-

تهتز وتربو ----- [التأهب]

وهدير العاصفة ----- [الغضب]

يكشف اللغز ويعطي العالم التين-

سر الكلمات⁽²⁾

إن في الاستمرار مع الحنة حياة ورغبة في التأهب، وغضب عاصف يصنع الأمل ويهفو إلى النصر. تتحقق هذه الغاية أسلوباً مع التوازي من خلال تردد الألفاظ والتراكيب، مما يعكس تقلب الشاعرة بين مرارة اليأس وأحلام النصر. لا شك أن في الوضع حكيم حقيقة واقعة كان أم أملاً

¹ - الديوان، ص 533-534-535-539

² - الديوان، ص 540.

مرجوا، يرتبط بالزمن والرؤية كما يرتبط بالصغار، فمنهم يكون القبس الذي يلهب الهمم ويعصف بالاحتلال (الجدول 05):

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
حكاية لأطفالنا	أعوام / عام	2	5 5 7 /1
			5 5 8 /1
	نظرة	2	5 5 8 /2

الجدول 06:

النص	التراكيب	التردد	الصفحة
حكاية لأطفالنا	ظلت على شفاه أمه تسيل/ظلت تسيل	3	5 5 7 /3

هي إذن حكاية يرويها الكبار للصغار، حتى صارت سائلا يسيل، لا تعرف الشفاه غيره، حقيقة لا يخالطها الشك، ولا يمازجها الريب...

إن التوازي يكشف عن البنية الدلالية داخل النص، بكونه يحدث تضافرا بين الألفاظ والتراكيب، وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف هذا النص الشعري، إلا أن الوقوف على معناه قد تم بوصف التكرار مفتاحا من مفاتيح فك الغموض والإبهام التعبيري المعتمد في هذا الانفعال الشعري، لاسيما ما كُتب تحت العنوان: (عن السادس من أكتوبر)، والإهداء: (مهداة إلى فارس)، وهذا ما يوحي مباشرة من أنه هو الشهيد البطل، صورة لجمال عبد الناصر المنتصر في حرب أسس نصرها ولم يشهده، فكل شهيد يزرع في المحتل رهبةً لا تزول باستشهاده، بل تتعمق به:

- (وجه على الرمال

وعنق تخر فيه عقدة الحبال

هامته مشروخة ودمه مداد

تشربه حروف مرثاة رهيبة السواد

ظلت على شفاه أمه تسيل

ظلت تسيل⁽¹⁾

¹ - الديوان، ص 557. وهو تواز مبني على النقصان.

هي حكاية الأجيال وروح الوجود، شهادة أو نصر حتى يؤذن بالفرج، ويعود الزمن المحبوب وتغدو الحياة معه نعيماً... لا تنفي هذه الصورة مسحة حب للشهداء تنقلها بعفة ووقار لمسات من الحنين، يخالطها حلم يتحسس خطى الراحلين مع تمني البقاء معهم؛ فلا نعيم إلا ما سعد به الذاهبون والباقون على حد سواء (الجدول 07):

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
ذهب الذين نحبه	نسرا	2	5 5 9 /2
	وطني	2	5 5 9 /1
	الدم/ دماؤهم	3	5 5 9 /2
			5 6 0 /1
	أحزاني	4	5 5 9 /1
			5 6 0 /3
	عيني	2	5 6 0 /2
	ظامئين	2	5 6 0 /2
	نحبهم	3	5 5 9 /2
			5 6 0 /1
شهاد			
مكان			
؟			
حال			
رؤية/بصر			
حال			
حال			

النسر شهيد، وقد سبق أن وصفت أحاسن إبراهيم بالطير، وهو -بدلالة القوة والبطولة والإقدام على التضحية- خطف الشهادة بدليل ألفاظ: (الدم ودماؤهم ووطني)، فترك شعوراً بالحزن عليه، مما ولّد حال الظم المرتبط بالحب لا لشخص بعينه، وإنما لكل من هانت نفسه فداءً للوطن. لقد اكتفى التصوير بالحال (الظم والحب والحزن)، والمكان (الوطن)، والشهيد (النسر والدم) بما يصنع حدثاً متكاملًا، دلّ المذكور فيه على المتروك، لتعيّنه ضرورةً.. (الجدول 08):

النص	التركيب	التردد	الصفحة
ذهب الذين نحبه	إننا سنبقى ظامئين	2	5 6 0 /2
	ذهب الذين نحبه	3	5 5 9 /2
			5 6 0 /1
نتيجة			
علة			

تقوم النتيجة (إننا سنبقى ظامئين) بقيام العلة (ذهب الذين نحبه)، حتى وإن كان الذهاب في الماضي حقيقة مؤكدة، والظم في الحاضر والاستقبال تأكيداً. إن توليد الإيحاء في النص وتوسيع الدائرة الدلالية جسده في أول الأمر (ذهب الذين نحبه)، ثم ما كتبت تحت العنوان: (إلى أرواح شهدائنا الأحرار في الغارة الإسرائيلية، الغارة في بيروت.. كمال ناصر، محمد يوسف النجار وكمال

عدوان⁽¹⁾. فكان العنوان والإهداء نصين موازيين لمضمون النص، الذي سُحن بألفاظ دل تكرارها على بشاعة الاحتلال، والموت، والحزن على فقدان كل رمز غال (الدم، الراحلين، أحزاني، وطني...):

- (نسرا ففسرا غالهم وحش الظلام)----- [الاحتلال]
سرق السمو من الأعالي.. آه يا وطني----- [الغدر/التحسر]
عليك من الدم الغالي سلام
من أجلك انفرطت عقود دمائهم

(...) ذهب الذين نجبهم----- [الفراق]

(...) أورقت صمتا على شفتي أحزاني----- [الصمت]

(...) تتساقط الكلمات صرعى مثلهم----- [الشبيه]

جثنا مشوهة، ترى ماذا أقول لهم
ومن عيني ومن قلبي تسيل دماؤهم
ذهب الذين نجبهم

(...) آواه يا وطني الحزين⁽²⁾

الاحتلال والغدر سببان للتحسر وهو نتيجة للفراق، فكان الصمت الغريب أمام مرأى الكلمات التي تسقط ميتةً سقوط الراحلين، في مشهد الكل يبكي فيه وطننا يتأوه، لتبرز صورة أخرى للشاعرة تعادل فيها الوطن الباكي حزنا على أبنائه حينما تسيل دماء الكلمات من قلبها وعينيها.. هناك تستشعر لوعة الوطن المجروح. وقد ارتبط المعنى بقولها: (ذهب الذين نجبهم) في البداية، وبه ارتبط في النهاية، وفي موضع واحد كان لها مع الراحلين موقف، ومع الوطن آخر، أنهتتهما بحزن متبادل، وشعور متماثل:

- (ذهب الذين نجبهم

(...) آواه يا وطني الحزين

كم ذا شربت وكم شربنا

في مهرجانات الأسى والموت كاسات العصير المر

لا أنت ارتويت ولا ارتوينا----- [الحال العامة]

¹ - الديوان، ص 559.

² - الديوان، ص 559-560.

إنا سنبقى ظامئين-----[ينابيع حزينة]

عند الينابيع الحزينة سوف نبقي-----[المآسي]

ظامئين

حتى قيامتهم مع الفجر الذي-----[اليقين]

حزنوه رؤيا لا تموت ولا يذوب لها حنين⁽¹⁾-----[النصر/الاستقلال]

إن القيامة لا يرى معها ظلم ولا نصر إلا إذا كان الاستشراف يوحي بنصر مؤجل يقينا، والنصر اقتصاص من كل ظالم، وهو احتمال. والاحتمال الثاني أن قيامتهم بالنصر في الدنيا يقينا منهم به، وهم أحياء يشهدونه بذكراهم في الوطن.

إن وجود الينابيع الحزينة يقتضي وجود الينابيع المفرحة، التي تحمل على الارتواء وشيوع الاغتياب، كما حملت الحزينة على الظمأ وتوالي المآسي. وهما الوضعان المتصارعان واقعا مفروضا وواقعا مأمولا، تعيّن المأمول منهما بتعيّن المفروض. وتضرب الشاعرة لهذا مثلا ما يظهره الجدول 09:

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
جريمة قتل في يوم ليس كالأيام	يوم/أيام	4	5 6 1 /4
	منتهى	3	5 6 1 /1 5 6 3 /2
المطاف	المطاف	4	5 6 1 /2 5 6 3 /2
	العدى/العدو	3	5 6 2 /3
مريولها	مريولها	3	5 6 2 /3
المدرسة	المدرسة	2	5 6 2 /2
قبة	قبة	2	5 6 3 /2
الضفة	الضفة	2	5 6 2 /1 5 6 3 /1

تُغَال (منتهى حوراني) وهي تلميذة تتجه إلى المدرسة، .. لا يهم المكان ولا الزمان؛ لأن الجريمة عاثت بروح بريئة، لا يقبل إهدارها احتلال ولا استيطان ولا حكم جائر ولا ظلم عتي... فكان يوم اغتيالها يوما لا يشبه أيام السنة ولا يُظن سيكون له مثيل، إلا إذا كانت الضحية ممن يماثل منتهى... يتحدد مع المكان الضفة موقعا جغرافيا، والمدرسة هدفا مقصودا للدراسة، والمطاف نهاية زمنية ومكانية للطفلة البريئة. ورغم ارتباط الجريمة بمكان وزمان، يبقى الفعل الآثم هو المقصود بالذم،

¹ - الديوان، ص560.

رافعا منتهى إلى مصاف الراحلين الذين يصرف إليهم كم الحنين الغزير، ولأجلهم وأجلها يُحلم بيوم يستيقظون فيه على الأمن والسلم والضياء المفتقد منذ زمن بعيد. (الجدول 10):

النص	التركيب	التردد	الموقع
جريمة قتل في يوم ليس كالأيام	تعلق أقمار أفرانها في السماء	2	5 6 1 /1 5 6 3 /1
	تعلن أن المطاف القديم انتهى	2	5 6 1 /1 5 6 3 /1
	تعلن أن المطاف الجديد ابتدى	2	5 6 1 /1 5 6 3 /1
	ظل في الضفة المشربنة	2	5 6 2 /1 5 6 3 /1

في التركيب الأول ما يصرف المعنى إلى الشهادة، وفي الثاني والثالث ما يثبت بدايةً ونهايةً؛ فأما البداية فهي بداية التصفية التي تسري على كل إنسان له بالأرض اتصال وارتباط. وأما النهاية، فهي انتهاء التعامل مع الكبار، فقد أضحى الصغار أملا يجب بتره قبل أن يصير خصما. وفي التركيب الأخير ما يصور حالة الذهول التي أصابت الناس بعد الاغتيال...
إن نظرة الشاعرة للواقع تنبعث من إحساسها بالسخط والألم، لذلك تعتمد على طريقة السرد في نقل تجربتها، وهي تحكي بطولات المقاومة، لتبني مهمة الراوي في قصة (منتهى):

- (ويوم الحبيبة في الأسر هبت عليها الرياح

محملةً باللقاح-----[التشيع بروح التضحية والرفض]

جرت منتهى-----[البنث؟؟؟]

تعلق أقمارها أفرانها في السماء الكبيرة-----[الشهادة]

(...) (بغرفتها أمها المتعبة

تلملم أوراقها المدرسية:

حذار العدى يا بُنيّة

فَعَيْنُ العدو تصيب)-----[تحذير/تخويف/رؤيا وتوقع]

وما كذب القلب ، كان عدو الحياة يطاردها في المسيرة-----[الترقب/التربص]

وينشب في عنقها مخلبه -----[الإفناء/الاغتيال/القتل]

* * *

ورفرف مريولها رايةً في صفوف المدارس، ورفرف وامتد---[المريول=الراية]
ظل في الضفة المشرّبة

وشوارعها المغضبة-----[الغضب المتنامي]
فوق سطوح المنازل فوق رفوف الدكاكين⁽¹⁾

حينما تصبح القضية في أيدي حاملها، فإن العمر يهون في سبيلها، لقد رفض الشعب الاحتلال، وزها للنفس أن تستشهد، فتتخلص البنت من كل عقد الحياة لتجري في اتجاه [العدو]، معانقة الشهادة، رغم تحذير أمها.

يقع التحذير موقع الرؤيا والتوقع، وهما ناتجان عن معرفة مُسبقة وتقدير قبلي، فهي العارفة بخصال [العدو]، والمجربة لأساليب البطش وكبح جماح الرفض عند الشعب المحتل، فلا تتوقع أبداً أن يغير سبيله حتى وإن كان التعامل مع الصغار، ولذلك جاء عدو الحياة (الاحتلال) راغباً في الإفناء، رغبة (منتهى) والرفاق في الحياة.

ما غاية أن تغتال بنت ما تزال في المدرسة إلا أن يكون السبب غرس الخوف في نفوس الصغار، حتى ينشأوا على الطاعة والاستسلام والخضوع، أو حرمان الوطن والأمة من أم مستقبلية ترضع صغارها حليب المقاومة، بدليل (حب الأسر/محملة باللقاح).

لقد تحولت الحياة بعد الاغتيال إلى غضب عارم عمّ الضفة وشوارعها، وصار مريولها (المئزر) رايةً للناس بدمائها واسم صاحبها وحرقة أمها والوطن عليها.

إن الجمع بين الماضي الذي يمثل الانكسار، والحاضر الذي تمثله شهادة منتهى يحمل دلالة الإصرار على الانتصار من أجل خلق تواز بين هاتين الضديتين، وهي رؤية الشاعرة التي تطل بها في نهاية النص:

-(وما قتلوا منتهى وما صلبوها

ولكنما خرجت منتهى

تعلق أقمار أفراحها في السماء الكبيرة-----[الرفعة والتكريم]

وتعلن أن المطاف الكبير انتهى-----[الكشف]

وتعلن أن المطاف الجديد ابتداء⁽¹⁾-----[العزم الجديد]

¹ - الديوان، ص 561-562. والموضوع يخص التلميزة (منتهى حوراني).

يحيل هذا الانفعال - في صورة نفي القتل والصلب - على صورة المسيح - عليه السلام - ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾⁽²⁾، وفي خروجها إلى السماء رفعةً وتكريمًا لها يماثل ما كان مع المسيح ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾⁽³⁾، ولعلها كرامة الشهيد ورفعته، وقد زاده الارتباط بالظلم قداسةً.

وأما موضوع المطاف المنتهي والمبتدئ، فيعود إلى انقسام العرب إلى الشتات - وهم عرب آثروا الهجرة من الوطن أو هجروا عنوةً - والمقيمين - عرب 48-، وهم الذين آثروا البقاء في فلسطين، فنالوا ما نال اليهود من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات. وعلى هذا الأساس؛ كانت الثقة قبل الاغتيال بالاحتلال ممكنة، ولكن بعده انعدمت، وهو ما يفسر نهاية مطاف وبداية آخر، كما يفسر الحد الزمني قبل وبعد 1967م. إن الواقع قبل هذا التاريخ يعين وطنًا للمحتل، هو ما أعلن فيه قيام الكيان الإسرائيلي منذ 1948م، وما بعده يعين ما يُسمى بالأراضي المحتلة ومنها الضفة الغربية وقطاع غزة، ولذلك بدا الانتهاء كشفًا، والبداية عزماً.

بهذا الوضع خرج أهل الضفة في مظاهرة تحدّدت معها حقيقة الاحتلال، وانبتت عليها عزيمة أمة عاشت على التشتت والانقسام، فتحوّلت القضية أنشودةً بين فريقين يجمع بينهم - في الداخل والخارج - الاغتراب. (الجدول 11):

النص	اللفظ	التردد	الصفحة
أنشودة الصيرورة	عصافير / عصفور	2	5 6 4 / 1
			5 6 5 / 1
الأرض		3	5 6 6 / 2
			5 6 8 / 1
الليل		2	5 6 7 / 1
			5 6 8 / 1
الرياح		2	5 6 5 / 1
			5 6 7 / 1
النهر		2	5 6 6 / 2
الشجر		2	5 6 7 / 2
طوفان		2	5 6 6 / 1
			5 6 8 / 1
الأسطورة		2	5 6 5 / 1
			5 6 8 / 1

¹ - الديوان، ص 563.

² - سورة النساء، الآية: 157.

³ - سورة النساء، الآية: 158.

في الديوان وصف للإنسان بالطير والنسر -وقد مرّ-، وما الوصف بالعصفور إلا للرقّة والهشاشة التي تميز المؤدين للأنشودة. إن العصافير في الداخل والخارج تحكي أسطورةً (حكايتهن الخاصة) تتعلق بالمكان (الأرض والنهر والشجرة المباركة) علةً للصراع، والاحتلال (الليل) خصمًا، يتوعده أهل الأرض (العصافير) بالغضب الذي لا يهدأ (الطوفان). وهو احتمال، بعد الطوفان من جهة الثائرين. والاحتمال الثاني وهو الأرجح، أن يكون الطوفان والليل صورة لذات الكائن وهو المحتل، فيكون التقدير مبنيًا على طغيان الطوفان كما طغى الليل على الأرض، ليحكي المظلوم أسطورة وفاء لها، تثبت كما يثبت الشجر ممتدا في الأرض، شاخًا في السماء، حتى وإن تحول الرفض إلى معاناة فيها أشكال من الحنين والحلم بالعودة إلى حال الرضى والانفراج، كونها من عمل الإنسان الذي يجب أن يأتيه، ويبقى ما يليها يتحقق في حينه وزمانه كما كان الاحتلال في حينه وزمانه. (الجدول 12):

النص	التركيب	التردد	الصفحة
أنشودة الصيرورة	كبروا أكثر من سنوات العمر	3	5 6 7 /2 5 6 8 /1

ينتهي التركيب ترددا عند (كبروا أكثر من سنوات العمر) للدلالة على عمق المعاناة وعظم النكبة، فأن يكون الطفل -وهو الذي ما زال يلح بالصبا- شابا وكهلا وشيخا يحمل بين يديه أحزان أمة وهموم وطن، فذلك من حال ما هم عليه من فقدان والنقص... فقدوا الوطن والإنسان من شتى الأعمار ومن الجنسين، والعلة الإنسان الذي فقد إنسانيته لصالح نفسه بالتعسف والقسر والظلم. إن المناجاة والحنين قد تدرّجت من صديق غريب إلى المسيح في عيد ميلاده إلى غير معيّن حتى صارت حكاية يرويها الكبار للصغار يزرعون فيها إرث السنين بموضوع (ذهب الذين نجبهم) بنموذج جريمة قتل منتهى، بغية الأمل في انتصار يرفع عنهم ما كبّل حياتهم وأفقدتهم توازن العيش بسلام، فغدا صنيعهم أنشودة رسمت البداية والنهاية، تحمل حنيننا للوطن ولمفقودين في سبيله وفي غير سبيله، ولكن ارتبطوا به وتعالقوا معه على مدارج ظاهرة فقدان والنقص في الخطاب الشعري عند فدوى طوقان كما سيظهر.

إن نعمة فقدان التي تعيّن الحنين والحلم تتعدى الوطن ومن راح حبا فيه، إلى المفقودين من أقرابها، والقصد يتجه إلى أخيها (نمر) بعد ما جرى مع (إبراهيم)، فتتعمق مأساتها :

- (يا نمر ، يا حبيب أختك الكسيرة الجناح

يا نمر يا جرحا جديدا غار في -

قلبي المغشى بالجراح

(١٠٠) يا نمر ، يا حبيبا ويا أميرنا لو أنه

فراق أعوام حملنا ثقله

لكنه فراق عمر

لكنه فراق عمر⁽¹⁾

يجري التكرار اللفظي على اسم العلم (نمر)، وما خلفه فيها (الفراق والجرح)، كما يجري تركيبا على جملة النداء (يا نمر، يا حبيب [نا]، يا جرحا)، والخبر (لكنه فراق عمر)، ليتعين شعورها الملازم للفقدان ممقوتا.

إن الأبدية في الخبر وفراقه الأبدي ولدا مماثلا لغربتها، فهو في فنائه غريب كغربتها في حياتها، وقد جاءها الخبر وهي في لندن، وحيدة غريبة مشجونة قد زادها الوضع تيبها وضياعا:

- (وهمت في الدروب

غريبة في بلد غريب

أحمل ثكلا لا تطيقه الجبال

أواه يا جنون هذه الحياة والأقدار⁽²⁾

غير أنها تجد في أمها الأرض عزاء بعودة ابنها إليها:

- (يا أم عائد إليك ابنك الحبيب

ترفه عرائس البحار في طراوة -

الصباح⁽³⁾

والحال ذاتها في (جسر اللقيا) معينة مكانا تلتقي فيه الأرواح حبا، على الحلم والحنين رغم الشجن وألم الفراق والبعد:

- (شجنا يتعتق في صمت

(١٠٠) أطيافا ترد دماء القلب

1 - الديوان ، مرثاة إلى نمر، ص421-422.
2 - الديوان، مرثاة إلى نمر، ص422. ذيلت النص في الصفحة 425 من الديوان بمدينة الانفعال الشعري (اكسفورد-انكلترا) حيث جاءها الخبر.
3 - الديوان، مرثاة إلى نمر، ص424.

(١٠٠) يا شجن القلب

يا شجن القلب تعتقه الأيام-

ويروى منه الحب

يا جسر اللقيا لا تبرح

أبدا لا تبرح هذا القلب⁽¹⁾

يهون فقدان ويزول ألم الذكرى عند هذا الجسر، الذي يثير الشجن والحزن، ويمسحهما معا في نفس الوقت، وتجري على تأكيد هذه المعاني بتكرار ملفوظات بعينها تشمل (الشجن والقلب) حالا وشعورا تَعْتَقًا مع الزمن (الأيام)، وترتبط-الملفوظات- (بالجسر) مكانا، فيُصَرَفُ الحدث لما هي عليه من ضيق ولوعة، تزداد على ما كانت عليه من قبل، ليتكرر معها حديث اللقاء والفراق:

-(أحبابنا خلف الحياة والزمان-----[البعد]

الليل ميعاد لنا-----[الموعد]

كل مساء ها هنا يضمننا لقاء-----[زمان ثابت/لقاء]

لكن لقاءنا حزين

لكن لقاءنا مهين

(١٠١) نحبه، وإن يكن حزين-----[الرضى / الانحسار]

نحبه، وإن يكن مهين⁽²⁾

هو لقاء يجتزل الزمان ليجمع بين حياتين غبطة رغم الحزن، ليكون الرضى سمة له رغم الانحسار؛ لأنه لا لقاء على الحقيقة إنما هو الحلم والحنين.. لقد مارست الحياة الإقصاء والإبعاد، ليكون الأمس زما لكل جميل والغد زما لكل كئيب:

-(معا نحن هذا المساء وتطويك

عني غدا

ضراوة هذي الحياة

ستقصيك عني بحار

وهيهات بعد أن أراك

1 - الديوان، ص 429-430. (جسر اللقيا) نص مصروف في معناه الكلي لأخيها (نمر). والتكرار فيه لا يحتاج إلى برهنة.
2 - الديوان، لقاء كل ليلة، ص 436-438. هكذا وبهذا اللفظ دون نصب خبر كان (حزينا/مهينا) كما يقتضيه نحو الجملة.

(...) ستمضي وسارق كل جميل -

وغال لدينا

سيسرق هذي الهناءة منا

ويفرغ منها يدينا⁽¹⁾

يختلف الحلم والحنين هنا على ما سبق حين كان الحديث عن رفاق الدرب ورافعي لواء القضية؛ هناك كان التعويض من أجل الأرض، وهنا تعويض عن آلام الأنا، والكل حنين لا ينتهي. إنه الحب، القيمة المفقودة في الحياة، يجد في جلسات الزمن مكانا له في قلوب الناس لماضين عن الحياة، فيكون الحنين إليهم وإلى الزمان والمكان تنفيسا عن كرب عظيم:

- (وكان قلبي الحزين، قلبي الصغير -

ينطوي على جفاه، على ظماه

ويسأل الحياة

عن دفقة من نبع حب⁽²⁾ .

ويجري هذا الوضع في (لماذا؟)⁽³⁾ (مكابرة)⁽⁴⁾ و(ولا شيء يبقى)⁽⁵⁾ و(عند مفترق الطرق)⁽⁶⁾، ليتعين في (حصار) أن الواقع المعيش قضاء وقدر. وتتساءل عن منقذ يحرر الإنسان من كيد الإنسان:

- (في الليل حين تفلت الأحزان من -

إسارها

(...) حيث يد القضاء سطرت -

مقدورنا الكبير وهي تعبت

وليس من مجير

وليس من مجير

1 - الديوان ، ولا شيء يبقى، ص463-464.

2 -الديوان، تاريخ كلمة، ص452-453.

3 - الديوان، ص431.

4 - الديوان، ص458.

5 - الديوان، ص463.

6 - الديوان، ص465.

(١٠٠) ألا يد تمتد للمكبل الغريق

تطلقه من شبك الأقدار -

من حصارها⁽¹⁾

إن آخر الملفوظ يربط بين الواقع الذاتي والواقع القومي، والرجاء في نجدة تخلص الوطن من إيساره، فيحصل التعويض بالقومي على ما هو ذاتي، ويتضاءل طغيان الفقدان به.

وفي (لحظة) و(بوركت لحظتنا) تمييز لأفضل الأزمنة التي لا تتعدى اللحظة المعيشة، وما سواها ماض سرى وانتهى وإن كان عمرا، أو آت سيمضي وإن يكن عمرا، سينتهي حتما كما انتهى ماضيه. وهو وضع جديد لا يؤمن إلا بالحاضر:

- (هذه اللحظة لا شيء سواها

زهرة آنية الروعة

فلنمسك

بها قبل العبور⁽²⁾

ما العبور إلا موقف بين حياتين، هو زمن الفناء، وعنده تنتهي كل الأماني والرغبات:

- (ما الذي ننتظر؟

ما الذي نحيا له؟

قد يملؤنا وهم نسميه -

الطموح

نكدح العمر ونشقى فيه كي -

نرقى الذرى

نجري ونسعى

لنفوق الآخرين

ثم ماذا؟

الخلود؟⁽³⁾

1 - الديوان، ص 434.

2 - الديوان، لحظة، ص 470.

3 - الديوان، بوركت لحظتنا، ص 472.

يحتمل هذا الملفوظ أن يكون قناعةً خاصةً تجري على الكائنات، وهو انفعال عام لا يتعلق إلا بالنفس في حال التذكر والاعتبار، وهو يتوافق مع كل اتجاه بما في ذلك مذهب الشاعرة، فيكون القصد فيه عاما لا يختص بظاهرة معينة.

ويحتمل الصرف إلى اليأس في صراع الإنسان مع الإنسان، فلا العرب أدركوا أنفسهم، ولا هم أدركتهم الانتماءات والتقرب إلى من بيده قرار رفع الجور ودفع الظلم.

ويحتمل أن يكون موجهًا للإنسان العدو الذي يرنو إلى الخلود في سيطرته على الإنسان وما هو بمدرك ذلك، فتكون الهزيمة مع الزمن قاتلة في حينها، وسيدرك عندها أن حياته ذهبت هدرًا، إذ كل الأشياء فانية.

والأولان أولى من الأخير؛ لأن الإنسان يعمل لمجد الدنيا وذكرى التاريخ، فإن توقف عن العطاء بعلّة الفناء توقفت الحياة عنده، واستقر في ثبات هو الفناء بعينه. لهذا يظهر أن الشاعرة - ولكثرة ما أصابها في حياتها من آلام الفقدان - مالت إلى شكل من الاستسلام النفسي للكائن والموجود، وهو علة مرضية تولد اليأس والقنوط. وقد سبق أن أظهرت يقينا بالنصر ولو بعد حين، فيكون تصريحها هذا قائما على ضيق زمني يتساقق والحال اليائسة، بدليل لجوئها إلى عيش الحدث في لحظته، دون الاعتداد بالماضي ولا المستقبل، إلا أن تكون تحسينا وتغيرا لما حدث يقينا، فلا الحنين يعيد ماضيا، ولا الحلم يحقق رجاءً، بل يجران معهما أزمنةً من الكآبة والأسى.

يبدو أيضا أن الشاعرة تريد الخروج من دائرة اليأس والتردد رغم كل شيء، ولذلك جاء انفعالها مأساويا، يرنو إلى الاتساع، فعلى افتراض حصول عكس ما حدث في حياتها، فإن احتمالا واحدا على الأقل يعين انفعالا سحريا، أو انفعالا ليس فيه من المذكور في الديوان شيء، مما يجعل الجمع بين كل الاحتمالات السالفة والوضع القائم ارتباطا نسبي، وتكون فيه النواة الدلالية واحدة، تقوم على الفقدان والنقص وتستقيم بالتعويض، الذي يحصل بتحصيل الهوية والوطن.